إشكالية الهوية في المجتمعات المعاصرة: مقاربة نفسية ثقافية (الجزائر أنموذجا)

د. العقون لحسن
جامعة بسكرة

د. جارالله سليمان
جامعة باتنة

الملخص:

إذا كانت مسألة الهوية قد طفت إلى السطح في العالم العربي المعاصر (منها الجزائر) فهذا نابع من وضعيات الصراع والتعدد الثقافي التي فرضتها كلا من الحركة الاستعمارية والهجرة والعولمة، إضافة إلى إخفاق السياسات الثقافية المتبعة في العقود الماضية في استيعاب قيم وعناصر الحضارة الحديثة.

الشيء الذي خلق مجتمعات يعايش الفرد فيها نماذج ثقافية متعددة في آن واحد، مما يجعله يعيش ثقافته بشكل صراعي تتجاذبه الحداثة بمقابل إلزامية الحفاظ على الثقافة المحلية وشرعة الإسلاف.

إن كل ثقافة تعتمد على التناسق بين الفرد الاجتماعي ومحيطه الخارجي في عملية انتقالها من جيل إلى آخر، وهذا بالتركيز على الوظيفة الانطولوجية، لكن قد نجد عكس ذلك بالتركيز الوظيفة البراغماتية بقوة في فترات التحول والتفاعل الثقافي مع ثقافات وافدة لأن الفرد في هذه الفترة تظهر لديه في كل لحظة أزمة معنى مما يدفعه إلى اللجوء إلى مجموعة من الاستراتيجيات النفسية الجماعية للتوفيق بين هذه المعايير الثقافية المتضادة، وتساعده في اكتساب هوية ديناميكية قادرة على التغير المستمر.

Abstract :

The issue of identity has emerged in the contemporary Arab world (notably in Algeria), which stems from situations of conflict and cultural diversity imposed by both the colonial movement, immigration and globalization, in addition to failure cultural policies established in recent decades to assimilate the values and elements of modern civilization.

Which creates communities in which the individual experiences several cultural models at the same time, which enables him to live his culture in an intercultural way, in which he wants to modernize in the face of the obligation to preserve the local culture with these values and the traditional norms of society.

Each culture depends on the harmony between the social individual and the external environment in the process of transgenerational transmission, and this by the process of socialization by focusing on the ontological system. However, we can find the opposite strongly based on the pragmatic function in periods of cultural transformation and interaction with foreign cultures, because the individual in this period seems to have a crisis of meaning at any moment. This leads him to resort to a set of psychological strategies to reconcile these conflicting cultural norms and help him to acquire a dynamic identity..

مقدمة:

شهد مفهوم الهوية في السنوات الأخيرة أزمات حادة في ظل الإشكالية الثقافية الحالية التي مست معظم دول العالم مع تمزقات عميقة في بناءها واستمراريتها، الشيء الذي جعل هذا المفهوم الجوهري لاستقرار الفرد والجماعة والمجتمع متشعبا حتى أصبحنا الآن لا نتكلم عن هوية فردية خاصة لكن عن مجموعة من الهويات والمتقمصات التي تفرض نفسها على الفرد.

فمن العادي أنه في مجتمع متعدد الثقافات نجد أن الهوية الفردية وحتى الجماعية تكتسب أبعادا جديدة مع خطر اندثار واضمحلال أشكال وتمثلات الهوية السابقة، فمن خلال أبحاث العديد من الباحثين أمثال: ماكس فيبر وكلود دوبار نجد أن مصطلح الهوية تطور من الصيغة المحلية الفردية أين نجد الفرد متمسكا بشدة بالجماعة والمجتمع المحلي إلى الصيغة الجماعية أو المجتمعية المتعددة التي يكون فيها الفرد متمسكا بمتغيرات مختلفة ولفترات زمنية محددة ، تمده هذه المتغيرات بوسائل هوية يستعملها بطريقة مؤقتة ليساير بها الوضعيات الحرجة الناتجة عن التغيرات السريعة والفجائية التي تمثل التعبير الصريح لمحاولات الآخر المستمرة لفرض نموذجه الثقافي المتعارض مع قيم وثوابت الفرد.

هذا ما يخلق لديه صراعا يأخذ صبغة جديدة مع العولمة سواء عن طريق المقاومات الوطنية لصالح هوية جماعية بعد وضعيات ضغط شديدة وتهديدات مستمرة، أو عن طريق المقاومات الإقليمية نتيجة لاتجاهات محلية مسيطرة ومنتشرة بقوة كردة فعل للعولمة.

وإذا كانت مسألة الهوية قد طفحت إلى السطح في **العالم العربي المعاصر** عموما والجزائر خصوصا، فهذا نابع من إخفاق السياسات الثقافية المتبعة في العقود الماضية في استيعاب قيم وعناصر الحضارة الحديثة والتي جعلت الامتثال بها وتقليدها الهدف الأول لهذه السياسات، هذا الإخفاق يعود إلى الفهم الخاطئ والمغالى فيه للثقافة والحضارة معا بعيدا عن الفهم العميق لجوهر عملية التطور

الثقافي لذلك أخفقت في الوقوف على طبيعة التحديات الحضارية والمشكلات الثقافية التي تطرحها فعاليات العالم المعاصر. الشيء الذي خلق مجتمعات متعددة الثقافات ما يجعل الفرد الجزائري يعايش نماذج ثقافية متعددة في آن واحد ما يدفعه إلى إتباع استراتيجيات متعددة في بناء هويته لتحقيق التوازن النفسي والاجتماعي وبناء الهوية. أشار اليها نوالدين طوالبي؛ وقبله كاميليري في المجتمعات المغاربية وعند المهاجرين؛ في كتابه: " الهوية في المغرب العربي" كمجموعة من ردود الفعل النفسية الجماعية التي يتبعها الفرد في المجتمع المغاربي للتخفيف من شدة صراع القيم المميز لوضعية الأزمة الثقافية التي تميز هذه المجتمعات. لذلك سنحاول من خلال هذا العمل التعرف على إشكالية الثقافة والهوية في المجتمعات المعاصرة، ومن خلال ذلك الوقوف على الاستراتيجيات النفسية الجماعية التي يتبعها الفرد لتحقيق هويته في المجتمعات المعاصرة.

1. إشكالية الثقافة والهوية في المجتمعات المعاصرة:

يشير **برهان غليون** في كتابه " مجتمع النخبة" على ضرورة التأكيد في تناول موضوع الثقافة على الطبيعة الفردية والاجتماعية ثم الجماعية لهذا المفهوم وعلى مكانة ودور الثقافة في بناء شخصية متوازنة ونظام اجتماعي متكامل، وهذا لكي نستطيع أن نفهم معنى التغيرات الثقافية ودوافعها وعقباتها والمقاومات المختلفة التي تجابه التحديثات الثقافية هنا وهناك ، وليوضح ذلك نجده يركز على الوظيفة والحركة الذاتية الخاصة بالثقافة التي تجعل لوجودها ولتطورها وفعاليتها معنى محددا، هذه الوظيفة تتمثل في تحقيق التوازن العام للجماعة من خلال جملة من المعايير المختلفة التي تسمح بدمج الأفراد بعضهم ببعض وخلق هوية خاصة بهم تميزهم عن أفراد الجماعات الأخرى.

بداية سنقوم بتحديد بعض المفاهيم التي سنعتمد عليها في هذه الورقة والمتعلقة بكل من الثقافة والهوية.

فالثقافة تعتبر من أكثر الموضوعات الإنسانية تعددا وثراء من حيث التناول، فلقد كانت موضوع اهتمام السوسيولوجيين والانثروبولوجيين منذ القرن الثامن عشرة مما سمح بتراكم معلومات غزيرة وتعريفات متنوعة ساعدت على فهم الواقع الاجتماعي بعاداته ونظمه وتقاليده فهما مميزا. فأولى الصياغات العلمية لتعريف الثقافة هي التي أوردها الانثروبولوجي الأمريكي تايلور الذي عرفها بأنها: "ذلك الكل المركب المشتمل على المعارف والمعتقدات والفنون والأخلاق والقوانين والعادات وكل القدرات والخصال التي يكتسبها الإنسان بصفته عضوا في المجتمع"(توبسن ميشال وآخرون، 1998، ص37)، يعتبر هذا التعريف بمثابة القاعدة التي اعتمد عليها الباحثون اللاحقون في تحديدهم لمعنى الثقافة بعناصرها ومظاهرها، فبدلوا وعدلوا وأضافوا عناصر جديدة لهذا التعريف. يعرفها مالينوسكي **B.MALINOWSKI**(1884-1942) بأنها :" تمثل نظاما تكون عناصره متضامنة ومرتبطة فيما بينها ، حيث يكون لكل عنصر دورا معين في السير العام لهذا النظام مما يتطلب دراسة جميع العناصر المتفاعلة لمحاولة فهم ومعرفة دلالاتها الثقافية"(السويدي محمد، 1991،ص 50)، كما يشير عزالدين الخطابي إلى أنه يمكننا أن نعرف الثقافة بكونها مجموع الإنتاج الفكري بالمعنى الواسع لكلمة فكر، وهو ما يسمح لنا بالنظر إلى الثقافة من ثلاث زوايا مختلفة هي الزاوية الفردية والمجتمعية والإنسانية العامة. فعلى المستوى الفردي تعني الثقافة تمثل الفرد للإنتاج الفكري المتداول أو لأي جزء من أجزائه والمشاركة في إغنائه وإثرائه، أما على المستوى المجتمعي ينظر إليها على أنها ظاهرة تعكس واقع المجتمع الذي ينتمي إليه الفرد وتعبر عن وضعيته وحركيته وعن العلاقات القائمة بين أفراده والجماعات المكون له، أما على المستوى الإنساني فهي تعني مجموع الأعمال الفكرية والفنية الخالدة التي تعبر عن مواقف الإنسان إزاء نفسه ومصيره وإزاء مجتمعه والآخرين، لهذا فان مثل هذه الأعمال تتجاوز الإطار المحلي لتصبح شاملة وعالمية.(عزالدين الخطابي، 2001 ، ص 21).

عموما ، ومنذ أمد بعيد كانت الثقافة تشير إلى مجموع التراث والعادات وطرق التفكير والسلوكات الموروثة من جيل إلى آخر، فهي تمثل هوية مجتمع ما وكذا هوية أفراده ، اليوم أصبح هذا المفهوم غير كافي في ظل العولمة وتحدياتها، فالخلائط الثقافية التي ظهرت وتظهر كل يوم جعلت من فكرة الثقافة تأخذ أبعادا أخرى في ظل هذه التحولات الزمانية والمكانية التي جعلت جميع أفراد المعمورة في اتصال ببعضهم البعض.

يقول **ديمورقون** :" إن التحولات الزمانومكانية تؤدي إلى تحولات في المفاهيم، فالثقافات تدخل في دينامية تطورية مختلفة بهدف خلق حالات جديدة انطلاقا من منطلقات أولية مختلفة" (HIJAZI, 2005, p 93). فالثقافة تعاش من خلال استراتيجياتها وتشكيلاتها الجديدة كما تعاش من خلال تشكيلاتها السابقة، هذه التغيرات المستمرة تجعل الفرد مستقبلا لأفكار وأنماط سلوكية كثيرة ومتعددة مما يوسع من إدراكاته للأشياء ويفرض عليه تطوير معارفه وتغيير أنظمة تفسير وإدراك العالم الخارجي اعتمادا على التعدد والثراء الثقافي الذي يميزه.

تظهر هذه الإشكالية بشدة وعنف في بلدان العالم الثالث وبالخصوص البلدان السائرة في طريق النمو (مثل الجزائر) أكثر مما تظهر في البلدان المتقدمة لأن العولمة فيها لا تهدد الثقافة والهوية الغربية بصفة عميقة لأنها أساسها ومنبعها عكس ما تخلفه في البلدان المتخلفة عن الركب الحضاري بعد مرحلة الإعجاب والانبهار من شعور عميق بالفراغ والإحساس بالدونية وشعور بالذنب مع خوف من التخلي عن الموروث الثقافي المحلي.

تبعا لهذه الظروف، ظهرت ارتباطات قوية بين العولمة وما بين الثقافات، بحيث تمثل هذه الأخيرة ثمرة وهدف أساسي من أهداف العولمة، مما يلزمنا بتغيير طريقة تناول الكثير من المواضيع المتعلقة بهما كالهوية والآخر وهذا بالتركيز على أثر التعدد الثقافي في المجتمعات الحالية وما يخلفه من تغيرات واضطرابات على

مختلف مستويات البناء الشخصي والاجتماعي.(برهان غليون، 1989، ص 65).

ونظر لأهمية الثقافة في بناء الهوية على المستوى الشخصي (هوية الأنا) والاجتماعي (الهوية للأخر) ثم الجماعي (الهوية الاثنية؛ الوطنية، الثقافية)، فان هذه الإشكالية الثقافية تجعل من عملية بناء الهوية لدى الأفراد تتسم بالتجاذب والاستقرار. **فالهوية كمفهوم** تمت دراسته في الكثير من العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع والفلسفة وعلم النفس والأنثروبولوجيا.

فهي ظاهرة متعددة ميادين التناول ومتعددة المفاهيم ومتعددة الأبعاد. تبعا لتعدد ميادين التناول، نجد أن الهوية تعتبر ملتقى العديد من الحقول النظرية التي تساهم في تناولها مثل علم النفس الوراثي (بياجي وزازو) وعلم النفس الاجتماعي (ميد، تاجفل وتورنر) وعلم الاجتماع (دوركايم وبير ودوبار) والانثربولوجية التحليلية عند اريكسون ، والأنثروبولوجيا عند لوفيس سترويس وعلم الظواهر (هيجل وسارتر)...الخ.

وبسبب هذا التعدد نشير إلى أن تحديد تعريف شامل لمفهوم الهوية هو عملية صعبة ومعقدة، لذلك فان إشكالية الهوية تتعلق دائما بمنطلق الدراسة عند الباحث بحيث نجد أن مصطلح الهوية يغير من شكله بحسب ميدان الدراسة الذي يتناول الهوية.

* أما بالنسبة لتعدد المفاهيم فهو ناتج عن تعدد ميادين التناول. كما نلاحظ أنه وفي نفس المقاربة النظرية يتم تناول الهوية بطريقة مختلفة، فمثلا في علم النفس الاجتماعي يمكن تعريف الهوية من زاوية المكانة والنوعية الاجتماعية أو من زاوية الأدوار أو من زاوية التفاعل بين مختلف الأفراد في الجماعة.

* أما بالنسبة لتعدد الأبعاد، نشير إلى وجود ثلاث أبعاد للهوية وهي: الهوية الفردية أو الاجتماعية أو الجماعية (فوق تركيبية المتعلقة بالأمة والوطن والثقافة)، فالهوية الفردية يتم دراستها من وجهة إكلينيكية تحليلية، بينما تتم دراسة الهوية

الاجتماعية من خلال مصطلحات الأدوار والعلاقات بين الجماعات أما الهوية الجماعية فتتم في ديناميكية جماعية من خلال دراسة الهوية الثقافية أو الاثنية أو الوطنية ...) .

تستعمل كلمة هوية في الأدبيات المعاصرة لأداء المعنى اللغوي لكلمة Idéntité التي تعبر عن خاصية المطابقة :مطابقة الشيء لنفسه، أو مطابقة لمثيله، أما في المعاجم الحديثة فإنها لا تخرج عن هذا المضمون، فالهوية هي :حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية، والتي تميزه عن غيره، وتسمى أيضًا وحدة الذات. كما أن كلمة الهوية ليست عربية في أصلها، وإنما استدخلها بعض المترجمين بمعنى الذات والأصل والانتماء والمرجعية. وهي مأخوذة من كلمة "هو" أي جوهر الشيء وحقيقته، فهوية الشيء تعني ثوابته وأيضا مبادئه، ويكفي طرح السؤال التالي لبيان ذلك :من أنا ؟ من نحن ؟ من هو ؟

وهكذا. أول من تناول الهوية في علم النفس بالمفهوم الحالي هو **اريكسون** على أساس أنها : " عملية بناء للشخصية تستمر طوال حياة الفرد المتفاعل باستمرار مع محيطه بهدف الإجابة على سؤال: من أنا **qui suis je** "، تتميز هذه العملية بالاستمرارية والتفاعل المستمر وهذا ما يوضحه **مالو سكايبر** في قوله:" الهوية هي عملية دينامية تقوم على التوفيق بين الاستمرارية والتغير في عملية تفاعل مستمر بين الأنا والمحيط الاجتماعي(GAILLARD.A, 2006, P 10).

في علم النفس الميداني، تم التركيز في دراسة الهوية على جانب الاضطراب النفسي بمعنى تناول الهوية من وجهة النظر المرضية كما هو الحال عند عميد مدرسة التحليل النفسي فرويد في أبحاثه حول ضياع الهوية عند الهستيري (كوسة فاطمة الزهراء، ص40)، أما من منظور استراتيجيات الهوية فيعرف كاميليري الهوية على أنها: "شعور واعي لخصوصية الشخصية الصادرة من خلال استراتيجيات الهوية، مع بذل جهد غير واعي، انطلاقا من التشبيهات، بهدف

الاستمرارية في التجربة المعاشة ،كما تتمثل أيضا في مشاركة الفرد في الأنماط الثقافية التي يعتبرها ايجابية (CAMELLERI, 1990, P338).

يشير علماء النفس والمحللين النفسيين إلى أن عملية بناء الهوية تبدأ انطلاقا من الشهور الأولى في حياة الفرد ، فعملية النمو النفسي للهوية للأفراد متشابهة في كل الثقافات، بحيث أن الرضيع في بدايات حياته يمر بمرحلة التعلق بالآخر واللجوء إليه لقضاء أي حاجة، شيئا فشيئا يكتسب استقلالية جزئية وهذا بالمرور على مرحلة توكيد الأنا بالاعتراض والرفض، ثم يدخل مرحلة ثالثة هي مرحلة بناء الذات "**soi**" التي تساعده في التفريق بين الذات والآخر إلى أن يصل إلى مرحلة الاستقلالية في المرحلة الرابعة **باكتساب وسائل رمزية كاللغة والثقافة.**

وهذا بتضافر جهود كلا من المدرسة والأسرة، فيتعلم الفرد هنا الاستقلالية في معيشته والتفاعل مع الآخرين في نطاق الجماعة والمجتمع، وبهذا خطوة بعد أخرى يطور الفرد شخصيته وبطريقة مستمرة حتى وفاته. **يختصر اريكسون** هذه العملية في قوله:" الهوية تولد من خلال التفاعل بين الميكانيزمات السيكولوجية والعوامل الاجتماعية، فالإحساس بالهوية ينتج بميل لاشعوري للفرد يكون امتدادا لتجاربه الذاتية أو ناتجا في البحث عن الإحساس بالتكامل والوحدة والانتماء من خلال تنويع عمليات التشبه والتقليد لنمط معين خلال طفولته"، ويضيف أيضا: "الإحساس بالهوية يأخذ مصدره من التشبه والتمثل بالنماذج والأنماط الموجودة في المجموعة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد" (كوسة فاطمة الزهراء، ص 49)، وبحسبه فإن عملية بناء الهوية تتبع مراحل التطور الشخصي كما أن المرور من مرحلة إلى أخرى يمثل أزمة من أزمات الهوية، كما قام بتحديد أربعة أبعاد للهوية يكتسب من خلالها السمات الخاصة بشخصيته سواء بالملاحظة وبتقليد البالغين أو بطريقة التعلم بالملاحظة والخطأ التي تساعد الفرد على التكيف وتعديل سلوكاته حسب متطلبات المجتمع. يحددها اريكسون في:

- الإحساس بالفردية وهو شعور ايجابي لجميع أنواع الذات.

– استقرار الصفات الشخصية طوال حياة الفرد، ولو حدثت تغيرات فإنها تكون بسيطة لبعض السلوكات.

– تحليل وجمع مختلف أنواع التقمصات، فالفرد من خلال تقمصاته يركز على بعض السمات التي تتناسب مع إمكانياته النفسية لبناء هويته الفردية الخاصة.

– التناسق المثالي للهوية في الجماعة بحيث يكون النمط الذي يكون عليه الأفراد البالغين هو النمط المثالي. (Gaillard. A, 2006, p 12).

ولما كان موضوع الهوية يركز على فئة الشباب، فإن عملية بناء الهوية في مرحلة المراهقة تعتبر المفتاح لفهم صيرورتها في مرحلة الشباب. فالمراهقة ، باعتبارها أزمة نمو، تعتبر مرحلة حاسمة في بناء الهوية لما تتميز به من تحولات جسمية ونفسية سريعة تأثر بدورها في بناء هوية الفرد الذي يكون تحت ضغط متطلبات التكيف مع جسده الجديد وإتباع سلوكات تسمح له بأن يكون مقبولا ومحترما من قبل نفسه ومن المحيطين به. تتميز هذه المرحلة بكثرة التقمصات التي تعتبر عملية أساسية من خلالها يتقمص المراهق شخصية الرياضي أو السياسي أو الباحث الذي يتمنى أن يكون مثله، فنجده مثلا يقلده في سلوكاته وفي ملبسه وحتى في كلامه أحيانا. والمراهقة تعتبر المرحلة الخامسة للتطور عند ايركسون، أين نجد المراهق يمر بأزمة مراهقة ومن خلالها أزمة هوية تظهر على شكل اختلاط في المعايير والأدوار والمجتمع هو الذي يقوم إلى حد بعيد بتوجيهه لإيجاد المكانة التي تناسبه وتحقق له الاستقرار في الهوية وتساعده على تجاوز أزمة المراهقة وأزمة الهوية المصاحبة لها (GAILLARD. A, 2006, P 13).

قبل أن يعني بناء الشخصية والهوية عمليات تمايز جماعة ما عن الجماعات الأخرى، أي الأصالة، يجب فهم أن بناء الهوية في ظل العملية الثقافية يهدف إلى بناء علاقات داخلية وذاتية بين الفئات السائدة والنافذة في مجتمع ما مع الطبقات المنتجة بمعنى تأسيس المعايير التي تساهم في حل الصراع الاجتماعي

والتناقضات الاجتماعية المنتشرة في المجتمع المحلي. (برهان غليون، 1989، ص65). فالثقافة والاعتناء بها مطلب شرعي والانفراد بالقيم التي تكونها وتتصف بها لا يكون بالسهولة المتصورة، كما أن الهوية تستوجب من الآخر تغيير الصور الأولية الخاطئة التي كونها مما يبعده عن الإحساس بالقلق ويساعده على تثبيت التصورات الصحيحة.

في دراسته للطلبة المهاجرين إلى فرنسا، يشير كاميليري إلى أن مفهوم الذات الغير ناضج لديهم يعود إلى اختلاف المحيط الثقافي الأصلي لدى أغلبيتهم عن ثقافة البلد المستقبل لهم، مما أدى إلى عدم ثبات التصورات الاجتماعية في أذهانهم بالرغم من الصدى الذي تحمله. يفتقد هؤلاء الطلبة إلى تنوع الهوية مما يجعل تشبههم بالمجموعة الأصلية والتمسك بها صعبا للغاية خارج ذلك الإطار، وينعكس ذلك خلال التقائهم بالجماعة الأصلية أين تظهر للسطح الجوانب المشتركة التي تجمعهم مما يمكنهم من إيجاد منبع لهويتهم، يؤكد كاميليري ذلك من خلال قوله:" إن للثقافة دور في تكوين تصور للهوية"
(CAMELLERI, 1984, P 290)

وكما أشرنا اعلاه فان مسألة الهوية قد طفحت إلى السطح في الجزائر خصوصا نتيجة إخفاق السياسات الثقافية المتبعة في العقود الماضية في استيعاب قيم وعناصر الحضارة الحديثة، الشيء الذي جعل الفرد الجزائري يعايش نماذج ثقافية متعددة في آن واحد ما يدفعه إلى إتباع استراتيجيات متعددة؛ بحسب طوالبي؛ في بناء هويته. فما هي هذه الاستراتيجيات ؟:

2. استراتيجيات الهوية في المجتمع الجزائري عند طوالبي:

يشير طوالبي إلى أن معظم الدراسات تكلمت عن عملية بناء الهوية في مجتمعات كلاسيكية تتميز بالتجانس والوحدة الثقافية، لذلك ظهر حديثا تساؤل معقد متعلق ببناء الهوية في مجتمعات متعددة الثقافات، وهذا ما يظهر في شكل صراعات وتقاطبات ثقافية ظهرت بشدة؛ على سبيل المثال؛ في عمليات تثاقف

وانسلاخ ثقافي عنيف في المجتمعات الحديثة الاستقلال مع ما صاحب ذلك من صعوبات على مستوى بناء الهوية. مما دعى إلى تسليط الضوء على هذه الإشكالية والظاهرة بالدراسة والبحث.

تناول نورا لدين طوالبي موضوع الهوية في المجتمعات المغاربية بالتركيز على عمليات البناء والتحولات في الهوية في وضعيات التثاقف التي تميز المجتمعات المغاربية الحديثة والاستراتيجيات المصاحبة لها، حيث يؤكد على أن ضغط الوضعيات التثاقفية يجعل الأفراد أو الجماعات يعيدون النظر في قيمهم الشخصية والجماعية مما يخلق حالة من التثاقف. هذه التغيرات في الهوية الأصلية تظهر في إطار المواجهة بين رموز ثقافية متعددة وتؤدي إلى ضغوط داخلية " أزمة في الهوية، إعادة النظر في الذات، " وكذالك خارجية " صراعات مع تمثلات الهوية السائدة """ (Colette SABATIER et al ,2002, p 70).

إن حقيقة الهوية في وضعيات التعدد الثقافي تختلف تماما عنها في المجتمعات أحادية الثقافة. فبناء الهوية يعتمد بالأساس على وحدة المعنى في النماذج والمعايير والقيم السائدة في مجتمع ما في شكل مؤشرات هوية قوية وثابتة تجعل من بناء الهوية عملية متوازنة ومستمرة. بينما في وضعية التعدد الثقافي نجد أن هذه المؤشرات تتميز بالاختلاف والتعدد وحتى بالتناقض والتقاطب مما يجعلها تفقد قدراتها على بناء الهوية بشكل متوازن عند الفرد. هذا ما يجعل الفرد يعيش فراغا في الهوية مع مشاعر قلق وحصر ناتجة عن هذا التعارض بين الرسائل الثقافية من حوله. ففي وضعيات التعدد الثقافي؛ بحسب طوالبي؛ يتجه الأفراد إلى استراتيجيات تفاوضية تسمح لهم بتنظيم صراعاتهم الداخلية والخارجية الناتجة عن هذه الوضعية. فما هي هذه الاستراتيجيات؟ .

قبل تحديد هذه الاستراتيجيات في المجتمع الجزائري من خلال أعمال نورالدين طوالبي لاحقا في هذه الورقة البحثية. تجدر بنا الإشارة إلى أعمال كاميليري؛ بروفسور في جامعة السربون في علم النفس الثقافي الذي ركز في أبحاثه على

محاولة الفهم الجيد لميكانيزمات الانتقال من مرحلة الصراعات الثقافية إلى مرحلة التكيف الثقافي في المجتمعات المتعددة الثقافات خاصة لدى الشباب المهاجرين إلى البلدان الأوروبية ؛ حول الاستراتيجيات النفسية لبناء الهوية في المجتمعات متعددة الثقافات التي يعرفها على أنها: " عمليات شعورية أو لا شعورية تحدد من قبل الفرد أو الجماعة لتحقيق هدف أو أهداف معينة"، تحدد هذه العملية بحسب طبيعة التفاعل والمحددات النفسية والاجتماعية والثقافية المميزة لهذه الوضعية (CAMELLERI,1990, p 24). فالفرد الاجتماعي؛ بحسبه؛ بحاجة إلى وسائل غير مادية لبناء هويته الفردية والجماعية، تمثل الثقافة المنبع الرمزي والهام لهذه الحاجة. فعن طريق دراسات ميدانية حاول كاميليري دراسة المؤشرات المستعملة من طرف الفرد لخلق معنى لذاته ولسلوكاته ولجميع تصرفاته الاجتماعية في إطار ما يسمى **بهوية المعنى**، بجانب هذه الأخيرة نجد **هوية المعايير** من خلال الصورة التي يحتفظ بها الفرد عن معاييره وقيمه، هاتان الهويتان هما ثمرة كل إنتاج للهوية ومؤشرات قوية على حركيتها، ولكي يقدم لنظريته، أكد على ضرورة التناول الجيد لبعض المفاهيم والتصورات الاجتماعية المتمثلة فيما يلي:

- التداخلات مع الحداثة في الأوساط التقليدية.
- الفرق بين المجتمعات التقليدية والحديثة الغربية والمصنعة.
- التغيرات في الوضعيات والاتجاهات كنتيجة لتأثيرات الحداثة.
- اضطراب التصورات الاجتماعية وركائز الهوية مما يؤدي إلى ظهور صراعات نفسواجتماعية عند الفرد في حالات التعدد الثقافي.

لقد حدد كاميليري استراتيجيات الهوية لدى المغتربين المغاربة في فرنسا في نوعين أساسيين هما:

– **الاستراتيجيات التي تهدف إلى إعادة الشعور بتقدير الذات:** يمر الفرد هنا بأزمة هوية ويكون في وضعية حرجة من تقدير سلبي للذات وتهديم للهوية، مما يجعله يلجأ إلى القيام بمحاولات لإعادة بنائها.

– **الاستراتيجيات التي تهدف إلى خلق وحدة معنى:(التناسق بين الوظيفة الانثربولوجية والبراغماتية):**

يشير كاميليري إلى أن الفرد يبقى في بحث دائم عن استراتيجيات تساعده على إعطاء معنى جديد لوجوده ولشخصيته ولتفسير سلوكاته المتكيفة مع محيطه، وحتى يصل إلى تحقيق وحدة المعنى على مستوى الهوية. ولا تتم هذه الوحدة في المعنى إلا أن حقق الفرد نوعا من الانسجام بين وظيفتي الهوية الأساسيتين: الوظيفة البراغماتية والوظيفة الانطولوجية.

أ.البعد البراغماتي: نجد الفرد هنا يبحث عن التكيف مع المحيط الخارجي بتحقيق مصالح نفعية من جميع انشغالاته البراغماتية وسلوكاته بحيث يتغاضى الطرف في الغالب عن الوظيفة الأنطولوجية للهوية.

ب.البعد الأنطولوجي: ما يحدث هنا هو العكس فالفرد يبحث أولا عن التجانس والاتساق في هويته بالتركيز على الوظيفة الأنطولوجية، ثم يتجه إلى اختيار استراتيجية هوية للحفاظ على هذا التجانس في هويته سواء كانت هذه الاستراتيجية بسيطة أو معقدة.(HIJAZI, 2005, p 32) .

إن الرؤية المتعددة الأبعاد لديناميكية الهوية تتميز بإمكانية حدوث أمور غير محتملة وأزمات كثيرة خلال مختلف مراحل حياة الفرد، خاصة الحساسة منها، مما يؤدي بالفرد للجوء إلى العديد من استراتيجيات الهوية، بمعنى اختياره لسلوكات محددة انطلاقا من عمليات شعورية ولا شعورية تهدف إلى تجنب أو على الأقل التخفيف من الضغط الداخلي الناتج عن صعوبات تحقيق استقرار في الهوية.

لقد لخص كل من بيار داستن وتانيه اوقاي استراتيجيات الهوية عند كاميليري في الجدول التالي:

الجدول رقم (01): استراتيجيات الهوية عند كاميليري

(Gaillard, 2006, p27).

إستراتجية إعادة الشعور بتقدير الذات		استراتيجيات خلق وحدة المعني: الترابط بين الوظيفة الانطولوجية والبراغماتية	
الهويات الغير مستقلة	الهوية السلبية: استدخال أحكام تحط من قيمة الذات	التناسق البسيط: حل التناقضات بواسطة حذف أحد العناصر	المغالاة في الاهتمام بالوظيفة الانطولوجية والاستثمار المباشر في النظام الأصلي: الأصوليين والمحافظين.
	الهوية السلبية المحولة: وهذا بالتمثل بالأفضل وتحويل الحكم المقلل من قيمة الذات على أفراد الجماعة الأصلية		الاهتمام السائد يكون على الوظيفة البراغماتية مع الحفاظ على نسبة أقل للوظيفة الأنطولوجية. (التناوب في المعايير: انتهازية محدودة)
	الهوية بالتميز: أين نجد أن الفرد يحس بفردانيته لكن لا يستدخلها		المغالاة في الاهتمام بالوظيفة البراغماتية مع الاستثمار الكلي والمباشر في النظام المستقبل مع رغبة شديدة في التكيف: انتهازية كلية.
الهويات التفاعلية	الهوية الدفاعية: تلعب الهوية دور رافض وحاجز للحماية من الآخرين	التناسق أو الاتساق المعقد: الاعتماد على تكوين بأحد بعين الاعتبار جميع	نوع من البريكولاج في الهوية: مع تناقض للذات وليس داخل الذات، وهذا وفقا لمنطق عاطفي ليس عقلي في شكل إعادة

		العناصر المتضادة	تفسير المعايير وفقا للمنفعة الفردية
	الهوية الجدلية: حول توكيد المواصفات الممثلة للذات والوقوف بشكل عدائي ضد السائد		البريكولاج في الهوية وفقا لمنطق عقلي: * إعادة الصياغة للمعايير * انحلال الروابط بين القيم والمعايير. * الربط بين التناقضات. * تقييم الروح بالعلاقة بالأرض. * تعليق قيمة التمسك بالقيم.
	هوية المبدأ أو الهوية الإرادية: تتميز بسلوكات متناقضة في شكل المطالبة بإحياء قيم المجموعة الأصلية في حين هناك رفض لذلك على مستوى الأفعال.	استراتيجيات التخفيف من الصراعات القيم	هذه الاستراتيجيات إشكالية لا تسمح بتجنب الصراع: *الترجيع التفريقي بين القيم المتعارضة. * الحد من الصراعات المتوالية * التناوب المنظم للقيم

أما بالنسبة **لنور الدين طوالبي** فقد حددها في كتابه: " الهوية في المغرب العربي" في ثلاث مجموعات وهي:

1.2.الأولى تعتمد على ردات الفعل الأولية للأفراد في مقابل التقاطب ولجوئهم إلى الانطواء حول أنفسهم ومعايير ثقافتهم المحلية:

في وضعيات تهميشية ونهائية مثال ذلك: المحافظين الدينين الذين يمثلون نسبة عالية من الشباب المغاربي، ويتميزون بدرجات من القلق والحصر النفسي الناتج عن غياب محددات ثقافية ثابتة وآمنة للهوية، وهم أحسن مثال لهذه الوضعية الصراعية الثقافية وردة الفعل الدفاعية. تتميز هذه الاستراتيجية بأنها لا تساعد الأفراد على الحل النهائي للصراع بين التقليدي والحداثي. يفسر كاميليري ردة الفعل هذه بأن الأفراد يجدون في الدين والتقاليد السلاح الدفاعي الأول لمقاومة التهديدات المتتالية على الهوية والشخصية لديهم.

هذا الانطواء حول الشخصية الثقافية تم تشجيعه من طرف السياسات الحكومية المتعاقبة في البلدان المغاربية التي اتجهت إلى إعادة إحياء النماذج الثقافية التقليدية وتعريب التعليم وتشجيع كل المعايير والقيم الثقافة المحلية كردة فعل على الضغط الذي مارسته ثقافة المستعمر على هذه البلدان حتى الاستقلال. وهذا ما يفسر عودة بعض الأفراد إلى ممارسة الشعائر وإحياء المقدسات بطرق عنيفة وجذرية في هذه المجتمعات بعد الاستقلال. لقد أشار العديد من الباحثين المغاربة (الأشرف وفيتوري 1980 لاروي 1973 طوالبي 1984-1994) إلى الثنائية الثقافية التي أنتجتها السياسات الثقافية في هذه البلدان بعد الاستقلال. فبالموازاة مع الاتجاه إلى تدعيم أسس الثقافة المحلية وتشجيعها لأهمية إحياء الهوية المحلية للمجتمع. يظهر الاتجاه الحداثي في سياسات المسؤولين من خلال تشجيع تطوير المجتمع وإغراقه بالمفاهيم والمعايير الحداثية بهدف اللحاق والنهل من الركب الحداثي.

هذه الثنائية الثقافية جعلت الفرد يعيش التقاطب الثقافي؛ بحسب طوالبي؛ الذي يمنع ظهور نموذج اجتماعي موحد ومقبول اجتماعيا من طرف الجميع. فهذه الأزمة متعددة الجوانب التي تعيشها مختلف دول المغرب العربي تعبر عن فشل جميع السياسات الثقافية بعد الاستقلال لتكوين نموذج هوية مقبول من طرف الجميع.

هذا ما يفسر الزيادة في التطرف في هذه المجتمعات وزيادة ظهور الاضطرابات والأمراض العقلية وانحراف الأطفال... فسرت من طرف العديد من الباحثين على أنها ناتجة عن هذا التقاطب.(N. TOUALBI, op, cit, pp 42-44)

2.2. ردة الفعل الثانية تظهر في وضعية التوازن في التقاطب بين رغبات وسلوكات الفرد المتزامنة: تجاه هذه الوضعية الصراعية في القيم والمعاني. هذه الوضعية تساعد الفرد على خفض التوتر النفسي المصاحب لهذه الوضعية التقاطبية من خلال نوع من البريكولاج في معاييره التقليدية بواسطة استدخال بعض السلوكات والتصورات الحديثة. يساعد هذا التوازن التقاطبي أيضا على تنظيم الخلط الثقافي من خلال ميكانيزمات نفسية تعمل على إبعاد الآثار المهددة للثقافة المحلية من خلال ثلاث سلوكات يحددها طوالبي في (سلوكات الاختيار، السلوكات المتعاقبة، السلوكات التفاضلية). (Ibid, p 47).

3.2 ردة الفعل الثالثة تتمثل في انفجار التمثلات الثقافية للفرد:

يؤدي **التعارض الداخلي** في القيم إلى انفجار التمثلات الثقافية للفرد الذي لا يقدر على معايشة صدمة القيم. مثال ذلك: الأفراد الذين ينتقلون حديثا إلى المدينة المشبعة بالعوامل التثاقفية نجدهم يعايشون تناقضا في هويتهم ولا يستطيعون أن يتموضعوا في وضعية ما.

إن هذه الطبيعة التقاطبية قد تؤدي إلى ظهور بعض المظاهر السيكوباتولوجية المتعلقة بإشكالية الهوية في هذه المجتمعات.لقد قام كل من طالبي 1979 وبوسبسي 1979 بدراسة (من خلال علم الأمراض النفسية) بعض ميكانيزمات فقدان الارتباط في الهوية الثقافية لدى بعض الحالات العيادية كالاكتئاب والميلانوخيا اللانمطي وعصاب القلق. خلصت دراساتهم إلى أن الصراع الثقافي لدى هذه الحالات (غالبا ما كان صراعا عنيفا ودراماتيكيا) يضاعف كثيرا من إمكانية حدوث المرض والانتكاس المرضي.

وهذا ما يتوافق مع نتائج أعمال دوركهايم حول الانتحار 1930 "الانتحار الاغترابي" بحيث ربط هذه الظاهرة بالطفرات الاجتماعية والاقتصادية في فرنسا في تلك السنوات. نفس ما أشار إليه بعد ذلك ديوهان 1952 من خلال تأكيده على أهمية أثر عملية التصنيع السريعة للعالم خلال النصف الأول من القرن العشرين على الزيادة المعتبرة للذهانات الارتكاسية في فرنسا في حين أن نسبة الذهانات العضوية في نفس الفترة بقي محافظا على نسبته السابقة. من خلال هذه الأمثلة، وعيرها، نؤكد على اهمية الثقافة وتغيراتها في تفسير عمليات بناء الهوية واضطراباتها. (Ibid, p 50).

أما بالنسبة للتعارض الخارجي: فيظهر بالأساس عندما تكون تمثلات الفرد حول القضايا أو الأدوار أو سلوكات اجتماعية ما تتعارض مع ما يتوقعه من الجماعة والمجتمع الذي يفرض عليه نماذج ثقافية ما لا تلبي متطلباته. هنا يظهر الصراع في شكله الكلاسيكي في وضعيات الخلط والتحيين الثقافي: كصراع الأجيال بين الرغبات الحداثية للشباب في مقابل متطلبات التقليدية من طرف الآباء.

ولكي يتجاوز الأفراد هذا الصراع المعاش باستمرار يمكن أن يلجؤا إلى التجنب والابتعاد عن الوضعيات الصراعية في شكلها السلبي من التهميش والاجتناب التي قد تتطور إلى حالات من الاكتئاب أو الثورة على هذه الوضعية بعنف قد يصل حتى إلى حد الانحراف والجريمة. يظهر هذا الصراع بشدة لدى الطبقات الوسطى والعليا في المجتمع والتي لا تتقبل بالضرورة التجذر الكلي في الثقافة المحلية بحيث لا يتمسكون إلا بالشكل العام لها نتيجة لإحساسهم الأخلاقي بضرورة احترام هذه التقاليد، في مقابل الطبقة الشعبية التي ترتبط ارتباطا وثيقا في الشكل والمضمون مع هذه الثقافة.

تتميز المجتمعات الجزائرية التقليدية بمجموعة من الخصائص النابعة من الاتجاه الديني المحافظ الذي ينظم بطريقة صارمة بعض المظاهر الثقافية المتعلقة

بالعلاقات الزواجية والأسرية والدينية ... فالكلام عن الحرية الجنسية وعن العذرية أو عدم القبول بالزواج الدموي.... يقابل بتعصب ديني وعرفي من طرف بعض الأفراد في مجتمع يبحث بشجاعة ولو بطريقة مؤلمة عن ولوج الحداثة والعصرنة. **(Ibid, p 52).**

وكتعقيب على ما سبق نخلص إلى :

– إمكانية أن تزيد ردات الفعل هذه واستراتيجيات الهوية من درجة الشعور بالذنب لدى الأفراد عكس ما تهدف إليه.

– لا يمكن أن يحكم على فرد ما أنه يتبع استراتيجية محددة من دون باقي الاستراتيجيات وإنما نجده في ديناميكية وتفاعل مستمر ودائم مما يسمح له بخلق واستراتيجيات جديدة تضاف إلى الاستراتيجيات السابقة.

– كما لا ننسى المميزات الشخصية للأفراد خاصة اتجاهاتهم تجاه العملية الانطولوجية والبراغماتية كما أن درجة الشعور بالذنب تختلف من فرد إلى آخر.

يجب القول بأن هذه الاستراتيجيات ليست نهائية، فكل فرد يمكنه أن يغير فيها في كل مرحلة من مراحل حياته بحسب الظروف المحيطة به والوضعية التي يتواجد فيها، وكذا من خلال مراحل تطور شخصيته والأهداف التي يهدف إلى تحقيقها.

خلاصة:

وكخلاصة لما جاء في هذه الورقة البحثية من خلال دراسة استراتيجيات الهوية؛ بحسب كل من كاميليربي وطوالبي؛ عند الفرد في وضعيات الصراع والتعدد الثقافي التي فرضتها كلا من الحركة الاستعمارية والهجرة والعولمة في العالم المعاصر. فقد ركزت أعمال طوالبي على الأخذ بعين الاعتبار أن الفرد من وجهة نظر عامة هو فرد اجتماعي يهدف إلى بناء هويته الثقافية بالتركيز على مجموعة من الميكانيزمات النفسية الجماعية بالإضافة إلى مختلف الدفاعات

النفسية التي يستعملها الأنا ضد الآخر وضد تهديدات الهوية مما يساعده على اكتشاف أغوار النفس الإنسانية التي تجعل الفرد يختار استراتيجيات هوية خاصة دون الأخرى. فإننا نستنتج أن:

– الهوية مفهوم ديناميكي مما يجعل ظهور أزمات هوية **حتمية** في حال التغير الاجتماعي.

– عندما تكون قيم ومعايير الفرد متعارضة مع محيطه الاجتماعي يختل توازنه النفسي، الشيء الذي يهدد هويته مما يفرض عليه اللجوء إلى استراتيجيات خاصة للعودة إلى وضعية التوازن.

– للجانب الاجتماعي دور كبير ومباشر على الهوية وسلوكات الأفراد خاصة في حالات الفراغ الثقافي.

– إن ردات الفعل المقدمة تجعلنا نفهم أن السلوكات الإنسانية تتغير حسب الإطار الثقافي، وهذا نتيجة للتصورات والتمثيلات الاجتماعية المختلفة وبحسب الوضعية الثقافية المحيطة بالفرد مما يؤثر في سلوكاته ويدفعه إلى معايشة صراعات هوية على المستوى النفسي، لهذا نجد أن لهذه التصورات والتمثيلات الاجتماعية دور كبير وهام في فهم عملية التفاعل بين الفرد ومحيطه الاجتماعي والثقافي خاصة في وضعيات التقاء وتقاطع الثقافات.

قائمة المراجع:

1.الخطابي عزالدين **(2001): سوسيولوجية التقليد والحداثة بالمجتمع المغربي**، الطبعة الأولى، منشورات عالم التربية، الدار البيضاء المغرب.

2. السويدي محمد **(1991): مفاهيم علم الاجتماعي الثقافي ومصطلحاته**، الطبعة الأولى، المؤسسة الوطنية للكتاب والنشر، الجزائر.

3.برهان غليون **(2005): تأثير العولمة على الوضع الاجتماعي في المنطقة العربية**، دراسات الشرق المعاصر، جامعة السربون، باريس، فرنسا.

4.برهان غليون **(1989): مجتمع النخبة**، الطبعة الثانية، دار البراق، تونس.

5.توبسن ميشال وآخرون **(1998): نظرية الثقافة**، ترجمة علي سيد الصاوي، سلسلة كتب ثقافية، المجلس الوطني للثقافة، الكويت

6.طوالبي نورالدين **(1988):** الدين **والطقوس والمتغيرات**، منشورات عويدات، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان.

7.طوالبي نورالدين **(1988):** في **إشكالية المقدس**، منشورات عويدات، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان.

8.عادل عبد الله محمد **(2000): دراسات في الصحة النفسية**، دار الرشاد للنشر، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر.

9.كوسة فاطمة الزهراء (بدون تاريخ): **أزمة الهوية عند الشباب الجزائري**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، (رسالة ماجستير غير منشورة).

10. **BERRY. J** (2008): Globalisation, Acculturation and Ethnicity, 13th International Metropolis Conference; Mobility, Integration and Development in a Globalised World, 27-31 October 2008, pp1-28, Bonn, Germany.

11. **BERRY. J & KIM. U** (1988): Acculturation and mental health, Health and cross-cultural psychology, pp207-236, Newberry Park. CA: Sage.

12. **BERRY. J & all** (1987): Comparative Studies of Acculturative Stress, International Migration Review, Vol. 21, No3, Special Issue: Migration and Health (Autumn, 1987), pp 491-511, Montréal, Canada.

13. **CAMELLERI. C et al** (1990) : Les stratégies identitaires, PUF, Paris.

14. **CAMELLERI. C et TAP. P** (1986) : Identité collective et changements sociaux, Privat, Paris.

15. **CAMELLERI. C** (1984) : Les étudiantes étrangers en France et leurs discours sur l'identité culturelle, Bulletin de psychologie, tome 37, N 364, Paris.

16. **HIJAZI. S** (2005) : L'identité libanaise entre l'appartenance confessionnelle et le partage culturel, Thèse de Doctorat (N.R.) en psychologie sociale, Université Lumière Humanités et Sciences Humaines, Lyon 2; France.

17. **Gaillard. A** (2006) : Les répercussions du processus d'acculturation des jeunes requérants d'asile sur les familles, Mémoire de fin d'étude pour l'obtention du diplôme

HES d'assistante sociale, Haute Ecole Valaisanne Santé-Social, Septembre 2006, Suisse.
18. **TOUALBI. N** (2004) : L'identité au Maghreb, L'errance, Edition CASBAH, Alger.
19. **TOUALBI. N** (1985) : L'ambivalence culturelle ou des reliquats psychologiques de l'histoire coloniale, Revue algérienne de psychologie et des sciences humaines, édition n 01, OPU, Alger.